

سقوط آخر دويلات الفرنجة (الصلبيين):

السياق والمقدمات

علاء اللامي



الهدف المُرتجى من هذه المقاربة التاريخية التحليلية في ضوء منهج علم الاجتماع التاريخي لحدث إسقاط الكيان الإفرنجي الأخير المُسمّى مملكة بيت المقدس وباللاتينية «Regnum Hierosolymitanum» وانسحاب جيوشه ومستوطنيه عبر البحر الذي جاء بهم بعد قرابة قرنين على قيامها (من 1099 إلى 1291م)، خلال حرب لم تزد على 44 يوماً، هو محاولة استكشاف جوهر تلك التجربة الدامية وسياقها التاريخي الحقيقي. ومحاولة تفحص حقائق ذلك السياق الذي قاد إلى ذلك الانتصار، ومقارنته كيفياً مع حيثيات السياق الذي يعيشه المشرق العربي اليوم وفي القلب منه فلسطين. فهذا البلد العربي يحتله كيان استيطاني إبدي آخر مختلف في الدرجة لا في النوع، ويحاول أيضاً إبادة شعبه وتكريس مجتمع استيطاني غريب عنه. إنها أيضاً محاولة لاستشراف آفاق الصراع مع هذا الكيان الجديد «الصهيوني» الإبدي النووي على أرض فلسطين.

بين كيانيين استيطانيين في بيئة غريبة

تقول الفرضية التي تقدّمها قراءتنا التاريخية التحليلية لهذا الحدث بإمكانية حدوث الحسم الوجودي مع الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة في المدى المنظور أو المتوسط، مثلما حدث مع الكيان الإفرنجي القديم في الرابع من تموز / يوليو سنة 1291. تأسيساً على أنهما كيانات غريبان عن البيئة «الجغرافية» الشرقية التي رفضتهما وعزلتهما حتى استمكنت هذه البيئة استراتيجياً فلفظت الأول بعد قرنين من هيمنته مثلما ستلفظ الثاني (الصهيوني). السبب هو أنّ هذين الكيانيين غريبان أنثروبولوجياً وحضارياً وقد أُقحما في هذه البيئة بقوة سلاح الإبادة والتضليل الديني.

وإنّ الحسم الوجودي مع الكيان الغربي الصهيوني سيحدث كما تُعلّمنا دروس التاريخ سواء حدث ذلك عبر تفكّك أو تفكيك هذا الكيان وانهياره بفعل عوامل داخلية يمكن أن تتحوّل إلى صراعية (اقتتال أهلي بين المستوطنين أو هجرات ضخمة مثلاً أو اختناق جيوسياسي تحت وطأة جرائمه الشنيعة وفقدان السند والحامي الغربي الإمبريالي). أو كنتيجة لموجة مقاومة فلسطينية عربية جديدة في ظروف مختلفة تزول فيها بعض أنظمة الاستبداد والتبعية والانعزالية العربية، وترتخي فيها قبضة الإمبرياليات النووية الغربية على العالم. أو بمزيج من جميع هذه الأسباب والعوامل والأساليب.

وسيكون من أكثر هذه العوامل المساعدة على حدوث هذا الحسم تداعيات ومفاعيل الجريمة الضخمة التي ارتكبتها هذا الكيان مُعبّراً عنها بحرب الإبادة الجماعية المؤثّقة بحق الشعب الفلسطيني في قطاع غزة وتساعد موجة التضامن الأممي المتنامي وطويل النّفس الذي غاب عنها الجمهور العربي إلا في بلد أو بلدين. والجوهري في هذا العامل أنه اكتسب قوة تعميمية كبيرة نتيجة الاندماج شبه التام في العقلية الإبادة الشبيهة إلى درجة التطابق مع النازية الألمانية بين مؤسسات وأجهزة الدولة الصهيونية ومكوّنات المجتمع الاستيطاني (الإسرائيلي) الذي أيّد دولته بنسبة لا سباق لها في تاريخ الحروب والاحتلال وتكاد تكون مُطلقة.

إنّ تجربة إسقاط وتدمير دولة استيطانية غزوية هي مملكة بيت المقدس في مرحلتها، الأولى «المقدسية» والثانية «العكاوية»، بالقوة المسلحة، لا يمكن التعامل معها بحثياً كحدث يمكن تكراره بشكل ميكانيكي كاريكاتوري بحث، فهذا أمر لا عقلاني ولا تاريخي تماماً، وإنما يمكن مقارنته واستلهامه ودراسة حيثياته بهدف الإضاءة على تضاعف السياق الحاضر الذي نعيشه ويعيشه عالمنا.

صدمة العنف الهذيانى الأوروبي

أحدث الغزو الإفرنجى العنيف للمشرق العربى صدمة عميقة على كل الصعد ولا سيما النفسية والمعنوية، إذ لم تشهد شعوب الشرق، بالرغم من الحروب والنزاعات المسلحة الكثيرة بينها، هذا المستوى الهذيانى من العنف الدموى غير المسبوق يقوم به البشر ضد بعضهم. وبشكل أخص، يقوم به غزاة مسلحون ضد سكان مدنيين لا علاقة لهم بالحرب والصراعات بين الدول. وكان الرحالة ماركو بولو - كما يقتبس تشومسكى فى كتابه «501 سنة والغزو مستمر»- قد سجّل بشيء من الدهشة والعجب أن جيوش العرب والشرقيين عموماً حين كانت تشتبك فى المعارك الطاحنة ضد بعضها تبقى حياة الناس غير المحاربين فى الأرياف والمدن تسير بشكل طبيعى جداً! وقد بلغ هذا المستوى فى «أخلاقيات» الحروب ذروته فى ما عرفه الفقه الإسلامى بمبدأ العصمتين، عصمة الطفولة والأنوثة، بما يترتب عليه من حصانة خاصة فى الحرب تُحرّم قتل النساء والأطفال غير المشاركين فى القتال حتى لو كانوا غير مسلمين، ولكنّ السلفيات الانتحارية المعاصرة كسرت هذا المبدأ ولم تحترمه.

أما الباحثة والمستشرقة البريطانية كارين آرمسترونغ، فتسجّل الآتى: «عندما احتل الصليبيون القدس سنة 1099، أصيب الشرق الأوسط بصدمةٍ جرّاء مجازرهم التى ارتكبوها بحق سكّان المدينة المسلمين واليهود (ونضيف: المسيحيين الأرثوذكس). إنّ ممارسة هذا العنف المنفلت من عقّاله - من قبل المهاجمين الفرنجة - لم يكن مألوفاً هناك. ومع ذلك، استغرق الأمر خمسين عاماً إلى أن قام المسلمون برّد العدوان بشكلٍ فعليٍّ (من مقابلة معها نشرت ترجمتها صحيفة «القنطرة» بتاريخ 30 آذار - مارس 2015) — سنراجع هذا التقدير الزمنى بعد قليل لإثبات عدم دقّته.

ويبدو أن تلك المذابح التى ارتكبتها الفرنجة ضد سكان القدس العرب المسلمين واليهود تبدو ضئيلة مقارنة بالمذابح التى ارتكبتها الدولة الصهيونية (إسرائيل) خلال حرب الإبادة المستمرة فى قطاع غزة التى فاقت وفق بعض التقديرات مئة ألف إنسان غالبيتهم من الأطفال والنساء.

وبقليل من التعمّق فى النظر المقارن الموضوعى إلى حالة العنف الأوروبي الإفرنجى الفالت والعشوائى والشامل الذى لا يفرّق بين أديان وقوميات ضحاياه، ولا بين كونهم أطفالاً أو نساء أو شيوخاً غزلاً وعاجزين عن الدفاع عن أنفسهم، نجد أن هناك ظلماً وإجحافاً بالصاق ثيمة العنف المَرَضِيّ الهذيانى ببعض الشعوب كالأتراك أو المغول إذا ما قورنوا بالأوروبيين الفرنجة والجرمان ومنهم الفايكنغ والسكسون... إلخ. وبهذا المعنى، يمكن القول إنّ المشرق العربى، وعلى امتداد الساحلين الشرقى والجنوبى للبحر المتوسط، شكّل جدار الصّدّ الأول أمام الزحف الإبائى الإفرنجى الذى كان سيستهدف شعوب الشرق كلها لو قُدر له أن ينتصر على العرب المسلمين نهائياً، ولصارت آسيا الغربية هي أميركا الجديدة الخالية من سكانها الأصليين!

إذا كانت ردّة فعل البيئة الشرقية على الغزو الدموى الإفرنجى (الذى أطلق عليه المؤرخون الغربيون، لا العرب المسلمون، تسمية دينية هي «الحرب الصليبية»، فيما سمّاها المؤرخون العرب المسلمون وعموم الشرقيين فى حينها باسمها القومى «الحروب الفرنجية») قد جاءت بعد نصف قرن على الغزو، فإن كل الشروط والظروف الموضوعية الراهنة وموازين القوى المتغيرة باستمرار تجعل ردّة فعل شعوب المنطقة على حرب الإبادة على غزة أقصر من ذلك بكثير. وإذا كانت الحروب الفرنجية (الصليبية) قد استمرت 196 عاماً وانتهت بسقوط آخر دولة إفرنجية فى فلسطين، ونعني مملكة بيت المقدس وعاصمتها عكا،

فإنَّ الحرب مع الكيان الاستيطاني الخرافي الأيديولوجي «إسرائيل» قد تكون أقصر من ذلك بناءً على عوامل وتجليات تظاهراتية عدة.

والكيان الجديد (الصهيوني) على كل حال لم تمر عليه بعد نصف هذه المدة. ولكن هل يمكن إجراء أي مقارنات أو استشرافات بناءً عليها بين ذلك السقوط وسقوط آخر محتمل في زماننا لدولة «إسرائيل»؟ لا يمكن الإجابة بحسم وبشكل ميكانيكي كما قلنا ولكن لنلقِ أولاً نظرة على سرديّة المملكة الإفرنجية منذ بداياتها حتى سقوطها المدوّي وتحولها إلى شيء من رماد التاريخ.

تدقيق تاريخي لا بدّ منه

إنَّ ما سجّله الباحث آرسترونغ من أنَّ أول رد فعل فعلي للعرب المسلمين على الغزو الصليبي حدث بعد خمسين عاماً، لا يبدو دقيقاً بمراجعة السرد التاريخي للحالة-الحادثة. وربما أرادت الباحثة الإشارة إلى معركة استرداد الرها التي حقّق فيها العرب المسلمون أول انتصار كبير لهم سنة 1144 أي بعد قرابة نصف قرن فعلاً وكانت هذه المعركة بمنزلة انكسار حقيقي في المسار الاستراتيجي للأحداث في مصلحة المشرقيين العرب المسلمين. هذا هو الاحتمال الأول، أمّا الثاني، فهو أنها قد تقصد معركة عين التينة قرب بيروت المحتلة من قبل الفرنجة سنة 1154م.

وبالجملة، فإن هذا القول ليس دقيقاً تاريخياً البتّة، فأول رد فعل عربي إسلامي على الغزو الإفرنجي وأول مواجهة عسكرية كبرى ومباشرة حدثت بين المسلمين والفرنجة (الصليبيين) في بلاد الشام كانت في بداية الحملة الصليبية الأولى، تخللتها محاولات نجدة وصدام عسكري مبكر.

ومن تلك المعارك: معركة عسقلان سنة 1099 بعد سقوط القدس بيد الفرنجة مباشرة. وفيها اصطدم الجيش الفاطمي بقيادة الوزير الأفضل بجيوش الفرنجة وانتهت المعركة بهزيمة الفاطميين. ومعركة حران - البليخ سنة 1104 على ضفاف نهر البليخ، وفيها تصدّى الحليفان شمس الدولة جكرمش السلجوقي حاكم الموصل وسقمان حاكم ديار بكر التركماني. وفيها انتصر المسلمون انتصاراً كبيراً وأسروا الملك بلدوين الثاني والأمير جوسلين دي كورتيني وآلاف الجنود الفرنجة إضافة إلى مَنْ قُتل من هؤلاء وقُدّر عددهم بعشرة آلاف. وتعدّ هذه المعركة أول هزيمة ثقيلة حلت بالصليبيين. ولكنّي سأخصّ معركة كربوغا، أولى هذه المعارك زمنياً (عام 1097 - 1098 م)، بوقفة خاصة هنا لأسباب سياقية سأوضحها في حينه بالرغم من أنها انتهت بهزيمة جيوش المسلمين.

وفي التفاصيل، نعلم أن قوات الفرنجة الصليبيين الجرّارة دخلت الأناضول وارتكبت فيه مجازر تقشعرّ لها الأبدان بحق المسيحيين البيزنطيين الأرثوذكس، كمجزرة مدينة زادار 1202 ومجزرة القسطنطينية 1204. وحين بلغت الحملة الصليبية تخوم الشام، فرضت حصاراً خانقاً على أنطاكية. وفي تلك الأيام اللاهية جاء أول رد فعل من البيئّة العربية الإسلامية على الغزو حين خرج من الموصل حلف عربي جرّار مؤلّف من عدة جيوش لإمارات المنطقة المتنافسة والحذرة من بعضها بقيادة الأمير كربوغا (أتابك الموصل السلجوقي) لفك الحصار الفرنجي عن أنطاكية والاشتباك مع الغزاة خارج أسوار المدينة. دارت مواجهة ضارية انتهت بهزيمة القوات المسلمة نتيجة الانقسامات والخوف والأخطاء التكتيكية العسكرية التي حدثت خلال القتال بين أطراف الحلف، ما مهّد لسقوط أنطاكية وتأسيس ثاني إمارة صليبية في المشرق. ولكنّ الأمر الثابت أن ردّ الفعل الفوري والمباشر كان مبكراً ولم يتأخّر كثيراً، كما قالت آرسترونغ، بصرف النظر عن مآل هذه المعركة.

مآثر التتوحيين الدروز في معركة عين التينة

أما ردّ الفعل الذي حدث بعد خمسين عاماً تقريباً، الذي تشير إليه أرمسترونغ، فثمة احتمالان هنا: الأول، قد يكون المقصود معركة عين التينة التي وقعت عام 1154م / 549 هـ، في عهد نور الدين محمود زنكي ابن عماد الدين الذي استردّ في العام نفسه حكم دمشق، وبقيادة ميدانية تولّاها الأمير زهر الدولة كرامة بن بحتّر التتوحي وقواته من الموحّدين الدروز. وقد انضم إلى التتوحيين مقاتلون مسلمون أفراداً وجماعات من الحواضر والبلدات المحيطة في البقاع والداخل، والذين هبّوا للمرابطة والدفاع عن الثغور الإسلامية ضد الغزو الفرنجي تلبية لأوامر ونداءات نور الدين زنكي على الأرجح أو بتشجيع منه إضافة إلى دوافعهم الإيمانية الذاتية قطعاً.

كانت القوات الفرنجية قد سيطرت على بيروت الفاطمية بعد حصار دام 11 شهراً قبل 44 عاماً بقيادة الملك بلدوين الأول. وقد حاولت هذه القوات التقدّم نحو الجبل والسيطرة عليه والتغلغل إلى المناطق المحيطة به سنة 1154. في هذه المعركة التي سُمّيت معركة «عين التينة» في بعض المصادر، ومعركة «نهر الغدير» في أخرى، تولّى الشيخ أبو العشائر بحتّر بن علي بن الحسين التتوحي التخطيط للمعركة والكمين الرئيس فيها وتجهيز القوات. وقاد حفيده زهر الدولة كرامة بن بحتّر ابن ناصر الدين سلاح الفرسان فيها. كان التتوحيون يحظون بدعم نور الدين زنكي ويتميّزون بخفّة وشراسة قتالية وقوة تحمّل هائلة جُبلوا عليها. ونفّذ زهر الدولة كميناً قاتلاً ضد قوات الفرنجة عند نهر الغدير قرب ما نسميه اليوم ضاحية بيروت الجنوبية وكبّدهم خسائر فادحة أوقفت تقدّمهم ثم كسرهم وأجبرهم على التراجع نحو حصونهم في بيروت الساحلية تاركين خلفهم أكداً من جثث مقاتليهم.

مجازر الفرنجة في بيروت لم توفّر المسيحيين

أمّا في معركة اقتحام الفرنجة لبيروت وهزيمة الحامية الفاطمية فيها سنة 1110م التي سلفت الإشارة إليها، فقد قتل الفرنجة عشرات الآلاف من سكان بيروت وفق بعض الروايات. إضافة إلى استعباد الآلاف منهم من الناجين وتعرّضت المدينة لنهب كامل وتدمير شامل لأسواقها وبيوتها ومساجدها.

وجرياً على عادتهم، لم يفرّق العسكر الفرنجة بين أهالي بيروت من العرب المسلمين والمسيحيين في تلك المقتلة. وهذا ما لا يريد أحفاد ضحايا الأمس تصديقه وأخذ العبر منه اليوم. لقد سقط في اقتحام الفرنجة لبيروت المئات، وربما الآلاف، من المسيحيين الموارنة والروم الأرثوذكس والسرّيان والأرمن في بيروت. وسقطت أعداد أخرى منهم لاحقاً في طرابلس بسيوف الفرنجة الغربيين.

حدث ذلك رغم أن غالبية القيادات المسيحية المارونية، ولا سيما موارنة الجبل والمناطق الشمالية والكسروانية، خالفت موقف المسيحيين الأرثوذكس واليعاقبة ووقفت مع الصليبيين عسكرياً ولوجستياً، حسب بعض الروايات، رغم الخلاف العقائدي بين الكنائس الشرقية والكاثوليكية اللاتينية. وانتهى هذا الخلاف قسراً بحركة تطهيرية إفرنجية أقصت غالبية الكادر الكنسي العربي والسرّاني من الكنائس المهمة والتاريخية في بلاد الشام، بدءاً من كنيسة القيامة في القدس، وتعيين أبدال عنهم من اللاتين أو من عملائهم المحليين.

استمرت، بعد ذلك، الغارات المتبادلة بين الفرنجة والتتوحيين سجّالاً حتى استولى نور الدين زنكي ابن عماد الدين في السنة نفسها على دمشق واعترف بالإمارة التتوخية في الجبل ومحيطه ورفع مستوى

التنسيق والتعاون معهم ومنحهم رسمياً صفة «حماة الثغور»، واستمر تحالفه معهم حتى عهد صلاح الدين الأيوبي. فقد استمر هذا الأخير على تحالف نور الدين زنكي معهم، بل وطَّور التحالف معهم أكثر من السابق.

وكان صلاح الدين - على عكس مزاعم المغرضين والجهلة الطائفيين في أيامنا - معتدلاً عقائدياً - فهو شافعي المذهب - ومنفتحاً على الأقليات الإسلامية كلها إلا فرقة الإسماعيليين النزاريين (الحشاشين) الذين استهدفوه شخصياً في أكثر من عملية اغتيال. ومن مظاهر انفتاحه واعتداله أنه جعل الشيعي العاملي حسام الدين بشاره الغساني أحد أمراء جيشه، ووثق تحالفه مع التنوخيين الدروز، واستعان بالمسيحيين الشرقيين واليهود. فكان سكرتيره الخاص ومستشاره المالي مسيحياً قبطياً يدعى صفى الدولة بن أبي المعالي (الملقب بابن شرقي)، وطبيبه الخاص الطبيب والفيلسوف اليهودي الشهير موسى بن ميمون. وفي القدس كان المسيحي الفلسطيني حسام الدين عيسى الجراح أحد أمرائه، وتقول بعض المصادر إنه كان أيضاً طبيباً جراحاً ماهراً تولى العناية بالقائد الأيوبي، وإليه ينسب حي الشيخ جراح في القدس.

ظلت بيروت ومعظم مدن الساحل الشامي تنزّ وتعاين تحت سيطرة الفرنجة حتى استعادها صلاح الدين الأيوبي عام 1187 م عقب انتصاره في معركة حطين الحاسمة. غير أن الصليبيين عادوا وسيطروا عليها سنة 1197م خلال الحملة الألمانية. وظلت بأيديهم حتى حرّرها المسلمون سنة 1291 خلال حملة المماليك موضوع حديثنا والتي أنهت الوجود الإفرنجي الصليبي. وعندها بدأت الدويلات والممالك الإفرنجية تنهال واحدة بعد أخرى حتى سقطت مملكة بيت المقدس الثانية فانسحب الفرنجة وعزّزوا سيطرتهم على مناطق ساحلية ونقلوا عاصمتهم إلى عكا. هنا بدأ تاريخ المرحلة الثانية من مملكة بيت المقدس الثانية (العكاوية).

مملكة بيت المقدس خارج بيت المقدس

مملكة بيت المقدس، هي واحدة من أربع ممالك أقامها الغزاة الإفرنج القادمون من أصقاع أوروبا كافة. وكانت أوروبا آنذاك قد بدأت تفيق وتستيقظ من سباتها الطويل وتحلّفها الثقيل. في حين كانت الحضارة العربية الإسلامية قد بلغت أوج ازدهارها ودخلت طور أفولها وانحدارها وتنشّطها إلى دويلات وإمارات صغيرة، تنقسم الهيمنة الشكلية عليها ثلاث دول، العباسية شرقاً والفاطمية في وادي النيل والأموية في أقصى الغرب وعلى البر الأوروبي الأيبيري، إضافة إلى دويلات متفرقة ومتقلّبة الولاء مقابلها على البر الشمال الأفريقي الغربي. والممالك الأربع على البر العربي شرقاً هي:

-إمارة - كونتية الرها (أورفا في تركيا اليوم) وكانت من قبل دولة آرامية لغة وسكاناً وثقافة: وهي أولى الدويلات الإفرنجية التي تأسست عام (1098م) على يد بلدوين البولوني (من مقاطعة بولونيا الفرنسية)، وسقطت عام 1144م على يد مؤسس الإمارة الزنكية عماد الدين زنكي الموالي اسماً وشكلياً للخليفة العباسي ببغداد، المسترشد ثم المقتفي.

-إمارة أنطاكية: تأسست عام 1098م بقيادة بوهيمند النورماندي، وظلت قائمة حتى سقطت على أيدي المسلمين بقيادة السلطان المملوكي الظاهر بيبرس عام 1268م، هازم المغول في معركة عين جالوت (1260م).

-إمارة - كونتية طرابلس: تأسست عام 1109م على يد ريمون الرابع دي تولوز، واستمرت حتى تم تحريرها على يد السلطان المنصور قلاوون عام 1289م وتوفي بعدها بعام.

-مملكة بيت المقدس: أهم هذه الدول. تأسست عام 1099م بعد استيلاء الصليبيين على المدينة المقدسة. بالإضافة إلى هذه الدول الأربع الكبرى، أقام الفرنجة دولتين أو كيانات سياسيين، الأول هو مملكة قبرص والثاني هو إمارة في قيليقية للأرمن جنوب شرق الأناضول. وهما خارج نطاق بحثنا، فلنعد إلى تجربة مملكة بيت المقدس:

تأسست هذه المملكة، وتُدعى مملكة بيت المقدس الثانية، التي تُعرف أيضاً بـ«مملكة عكا»، في عام 1192م، وتُسمى المملكة الثانية، تفريقاً لها عن الأولى التي تأسست في 15 تموز 1099م، بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى في السيطرة على الشام، واستمرت قائمة حتى سقوط عاصمتها القدس في يد صلاح الدين الأيوبي عام 1187م بعد انتصار المسلمين في معركة حطين.

أما مملكة بيت المقدس الثانية، فجاء تأسيسها نتيجة الحملة الصليبية الثالثة، بعد توقيع «صلح الرملة» بين الأيوبي والملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد.

ففي سنة 1187م، استعاد صلاح الدين الأيوبي مدينة القدس ومعظم مدن الساحل والشام بعد معركة حطين. وحين فقد الإفرنج العاصمة انهارت مملكتهم، بيت المقدس الأولى، ورحلوا عنها نحو عكا، ولم يتبق في أيديهم، إضافة إليها، سوى مدينة صور كمعقل رئيس.

بعد أن حاصر الفرنجة في حملتهم الثالثة عكا تمكّنوا من استعادتها عام 1191م بقيادة ريتشارد قلب الأسد وفيليب أغسطس. ولكنهم فشلوا في استعادة القدس فاتخذوا عكا عاصمة مؤقتة وبقيت مؤقتة حتى دمار مملكتهم الثانية.

وفي صلح الرملة (أيلول 1192م) وقّع صلاح الدين وريتشارد اتفاقية سلام، ألزمت الطرفين بالواقع العسكري الجديد. بموجبها تظل القدس في أيدي المسلمين (مع السماح للمسيحيين بالحج إليها دون سلاح)، في مقابل اعتراف الأيوبيين بسيادة الصليبيين على الشريط الساحلي الضيق الممتد من صور إلى يافا بما يشمل عكا.

هذا في ما تعلق بحديثات السياق والمقدمات التي سبقت المعركة الفاصلة (معركة عكا) وانهيار الكيان الإفرنجي الأخير مملكة بيت المقدس وهروب الجيوش والمستوطنين الفرنجة عبر البحر الذي جاء بهم. وتفاصيل هذه المعركة وتداعياتها ستكون موضوعاً لوقفه مفصلة أخرى قريباً، نتطرق في بدايتها إلى دروس فشل تجربة الاستيطان الإفرنجي الواسع النطاق في بلاد الشام على الرغم من سيطرته العسكرية على الجغرافيا والديموغرافيا والثروات.